ملوك العرب[1]

السيد الادريسي

جيزان

وصلنا الى جيزان بعد الظهر ساعة الجزر . فانكشفت أمامنا ونحن في السنبوك بقعة من الأرض سوداء تفصل بين الشاطيء والماء لا يمكن المرء اجتيازها الا حافياً فلاقانا الى حد الجزر رجال يحملون الكراسي ، أو بالحري الاسرة المصنوعة من الخشب والحبال ، فأنزلونا من السنبوك وأجلسونا فيها ، وحملونا على مناكبهم الى البر . وهناك استقبلنا بعض الجنود والمتوظفين يتقدمهم شاب كيس لطيف ظننا وصدق ظننا مصريًّا . هو السيد العابد بن السيد سنوسي الادريسي ، المولود في مصر المقيم في جيزان

رحب بنا باسم حضرة الامام ، وسرنا واياه الى القلعة وهي على ربوة خارج البلد قريبة منها ومن البحر ، نصفها قديم هندسته يمانية ، أي أنه ضخم رفيع صغير النوافذ ، ونصفها جديد أمر ببنائه السيد مصطفى ابن عم الامام وأعده للضيافة وهو يشتمل على عدة غرف كبيرة ترقص فيها الشمس ويلعب فيها الهواء والغبار ، وحوشين الواحد ضمن الآخر وحمام ومائدة افرنجية

كنت أمثل لنفسي مما سمعته عن جيزان بيتاً من القش تقيم فيه ، وجواري حبشيات يخدمننا ، وولداناً يقفون الى جنبنا وبأيديهم المراوح يروحون . أما الجواري فما رأينا غير أثر من آثار أيديهن في الدواوين البيضاء الشريفة والوسائد اللطيفة الوثيرة . وأغطية الفرش النظيفة . وأما الولدان فكانوا واقفين في الحوش يحملون بدل المراوح البنادق والخناجر

جيزان بلدة قديمة في تهامة تبعد عن أبي عريش شرقاً منها كما تبعد تقريباً عن صبيا شمالاً . فهي من البلدين رأس المثلث الزوايا على البحر الذي يحيط بها كالهلال من ثلاث جهات . وهي صغيرة لا يتجاوز سكانها الستة آلاف نفساً وكانت في الماضي على ما يقال أكبر مما هي الآن وأوسع عمراناً . بناها أحد المحسنين الى الانسانية ليقرب الناس على ما أظن من البحر والرزق — أحد المحسنين المدفونة أسماؤهم في

(١) وهو تحت الطبع في المطبعة العلمية لصاحبها يوسف صادر ببيروت

اثارهم . ولكنه لم يبق من مؤسس جيزان وآثاره غير اسم البلد الذي يخالهُ العارفون الى كلمتين جا وزان . أي جاء الزاث أو بالحري من أسس البلد وزينها بمخلق الله ولكننا لا نعرف من هو . ولا نتيقن أن البلدة التي شيدها وزينها كانت في مكان جيزان اليوم او في غيره من سبخات تهامة

نظرنا اليها وهي من القلعة شمالاً فاذا هناك مجموعةٌ كواخ من القش هرمية الشكل يتخللها بيوت من الحجارة شبيهة بمعابد الاقدمين مربع سطحها أصغر قليلاً من مربع أساسها ، وبينها مفردات وثريات من النخيل وحولها ذاك الخط الذي يحيط بها كنطقة الفرس ، وهو أزرق ساعة المد ، أسود ساعة الجزر ، أصفر في ساعات الشفق والغروب . وفي الساحة الكبيرة بينها وبيننا قفص من القش يأوي اليه أحد الحرس في النهار . وفي الجهة الغربية من الساحة المسجد الجامع وهو بناء صغير ذو مأذنة متواضعة . ومحن تحتله الشمس سحابة النهار . ووراء القلعة أو بالحري القصر شرقاً بجنوب قلعة أخرى تشرف على البلد والبحر فيها بعض المدافع وحولها المتاريس

سررنا ببيتنا الجديد وهو احسن ما في جيزان مركزاً وبناء . واستأنسنا بمشاهد من نوافذه لا ابهة فيها ولا جلال ، ولكنها تومىء كلها الى حياة بشرية بسيطة ، اجمل ما فيها من وجهة فلسفية ، القناعة والصبر والسكينة والاطمئنان . ولكننا ، من وجهة اجتماعية اقتصادية ، حزنا في امر اصحاب هذه الفضائل القدسية . حزنا في امر اهل هذا البلد وموارد رزقهم

عندما رسونا في مياه جيزان كان اول ما دنا من الباخرة سنبوك يحمل صاحبهُ بعض الرسائل واكياساً صغيرة ثقيلة — اكياساً عديدة فيها الذهب والفضة . فسألت الربان الانكليزي ما اذا كان لاحد مصارف انكلترا او الهند فرعٌ في جيزان . فضحك ثم قال : اني مستعجب من ذلك فمن اين يجيء الذهب الى هذا البلد وفي كل سفرة نحمل منهُ اكياساً الى عدن ؟ ونحن في انكلترا لا نرى الذهب قطعاً في هذه الايام

اجل ان في جيزان ذهباً وفضة ، وان كنت لا ترى فيها سوقاً او اثراً ظاهراً للتجارة . وان في جيزان ستة آلاف نفس تحيا وتحمد الله ، وان كنت لا ترى حولها بقعة ارض خضراء . فمن اين يجيئهم الرزق وكيف يتاجرون ويثرون ويتمكنون من تخزين اموالهم ذهباً وفضة في المصارف ؟ سؤال بديهٌ حريٌ بالجواب

كانت جيزان في سنتي الحرب الاوليين المدينة الوحيدة في تهامة المفتوحة للتجارة . وكان القسم العربي من شبه الجزيرة اوحلة يستقي من مواردها . فكانت ميناؤها ميناء البلاد كلها . ثم انتقلت التجارة الى ميدي. اما جيزان اليوم فهي احدى عاصمتي الادريسي . وهذا اول مصادر الخير فيها . هي نقطة دائرة خصبة اطرافها ، غضة حواشيها . يؤمها الناس من المغرب الاقصى ومن مصر ومن اعالي الصعيد ، ومن المدن جنوباً وشمالاً في تهامة ، فيجيء منهم الرزق — التجارة والكسب والخيرات — يحمل الحنطة اليها تجار ميدي وابناء الجبال ، ويحملون من معادنها الملح ومن شواطئها البضاعة التي تجيء بها البواخر والسنابك من مصر ومن الهند . ان جيزان لمركز توريد وتوزيع . انها لمورد تجري اليه الاموال من هذه الجهة ومن تلك فتوزع منهُ في الجهات كلها . كذلك من لا شيء يُرى تعيش جيزان ، وتضيف فوق ذلك السادات والعربان ، وتغدق على كل محترم كسلان . وامير هذه الحركة الخفية ، وقطب تلك الاريحية ، هو السيد الاكبر الادريسي

كان يومئذٍ السيد محمد بن علي الامام فارسل رسولهُ بعد ساعتين من وصولنا يدعونا اليه . وركبنا (موتر) السيارة قسرنا في اسواق البلد الضيقة والصبيان يركضون وراءنا ويصيحون ، حتى وصلنا في المنحنى الغربي منها الى ربوة تشرف كذلك على البحر يحيط بها سور كبير . فاستقبلنا خارج السور فرقة من الجنود الادريسية اصحاب الشعور المنفوشة ، والصدور المكشوفة ، والبنادق المشوفة . لاضباط من الترك هاهنا ، ولا صوت للزامل [1] او البرّان

نزلنا من السيارة ومشينا بين صفين من الجنود الى بوابة حارسها مولد عملاق سلم ويده على رأسه . وأدخلنا آمنين فاذا نحن في حوش كبير وبين آخرين من الجنود مشى فريق منهم أمامنا الى باب دخلناه فاذا بقيم مولانا وأعوانه في الحوش الثاني يسلمون ويرحبون. أخذوا مكان الجنود وتقدمونا الى فناء الدار فاستقبلنا هناك وزيرا حضرة الامام وحاشيتهما. فدخلنا واياهم الى رواق صغير ، وقفنا فيه عند باب كبير ، فخلعنا نعالنا هناك . ودخلنا الى المقام الشريف المنيف — الى قدس الاقداس والتقديس — الى مجلس مولانا الامام ابن ادريس

وما المكان غير بضعة أبواع أخرى من أرض الله وسقفه القبة الزرقاء ، وهو

(١) الزامل نشيد من أناشيد اليمن الوطنية والبرّان البوق

تحوط بأربعة جدران عالية في أحدها باب يفضي الى بيت الحريم ، وفي الثاني باب آخر يدخل الامام ويخرج منهُ ، وفي الثالث ثالث هو باب المسجد الخاص . أما الساحة ففي وسطها منصة تعلو قدماً واحداً عن حاشيتها مفروشة بالسجاد والدواوين المرتفعة والمساند . هو ذا المجلس الشريف ، والمقام المنيف ، وفي صدره ديوان خاص كان حضرة الامام ساعة دخولنا جالساً عليهِ ووراءه عبد يروح له بمروحة كبيرة من الخوص . وقف لنا ورحب بنا ترحيباً جميلاً . فسلم على الدكتور فضل الدين[1] سلام الإمامة على احد المقربين منها فقبَّلهُ في وجههِ . وسلم عليَّ مصافحةً سلام الاماجد ثم امر بالجلوس على ديوان قربهُ . وكان في المجلس الى يمينهِ وشمالهِ السيد سنوسي والمفتي وقاضي القضاة وغيرهم من اصحاب الوجاهة والعلم

ها انذا لاول مرة امام سيد من السيود . امام اسود يسود مليونين من العرب وفيهم الوف من سليلة اهل البيت — من السادات . وقر التعزز لاول وهلة في نفسي . ولكني وهو يتكلم ارتحتُ الى حديثهِ ، وملت اليهِ ، ورأيتني رويداً مكبراً الرجل ، معجباً بهِ

كان السيد محمد بن علي بن احمد بن ادريس ، رحمهم الله اجمعين جاحظ العين صغيرها ، رفيع الجبين ، دقيق الانف ، ضخم الشفة والرقبة مستدير الوجه ، نحيف اليدين ، عريض المنكبين ، طويل القامة ، شديد البأس واللهجة والغضب . وما كان فيهِ من ملامح السود البارزة غير فهِ ، وتكوين وجهه ، ثم لونهُ الشديد السواد . وفيهِ من اثر الجنس السامي والآري — تذكَّر ان امهُ هندية — ما ذكرت ، اي الانف والجبين واليدين . وكان يلبس النظارات المصبوغة لضعف في عينيهِ ، ويجلس متربعاً على الديوان ، ويتكلم بصوت عالٍ فيهِ بعض الغُنة . ولهُ في الوقفات اشارة تمكين كانهُ يجر الالف والهاء ثم الهاء والالف ليثبت ما يقول

شكرتهُ على ما لقيناهُ في الطريق منذ دخولنا بلادهُ من الحفاوة والضيافة والاكرام . فقال هذا ما ننفيهِ وهو قليل في جانب ما تسعون اليهِ . انتم تسبحون في البلاد العربية لخيرها وخير اهلها ، وتقاسون المشقات من اجلهم ، ومن اجلنا نحن حكامها . فتستحقون اضعاف الاكرام الذي تشكروننا عليهِ . ولا شكر ايها الاديب على الواجب

(١) الدكتور محمد فضل الدين من لاهور بالهند وهو الوكيل السياسي لدولة بريطانيا العظمى في الحديدة

فقلت : وانا كذلك اقوم في رحلتي بما اعتقدهُ واجباً . اني اشعر يا مولانا بان في عروقي من الدم الذي يجري في عروق العرب . اظن ذلك ، بل اعتقد بهِ ، وان كان اثباته بالحجة والاسناد غير ممكن . نعم ، ان كثيرين في بر الشام من قحطان ، من بني غسان مثلي

فقال السيد وهو يرفع نظاراتهِ عن عينيهِ : ونعم النسب . غسان ريحانة العرب. ونحن نحترم كل عربي صميم يعرف الواجب عليهِ ويقوم بهِ ، من قحطان كان او من عدنان . نحن يا حضرة الاديب عرب قبل كل شيء ونغار على اصغر صغائر الامور الوطنية من المطامع الاجنبية والسياسة الاوربية

ثم انتقل فوراً الى اميركا ، كأنهُ لم يشأ ان يكون الحديث ساعتئذٍ في الموضوع الذي لمس حاشية من حواشيهِ . وكانت سؤالاتهُ تدل على انهُ عالم ببعض شؤون تلك البلاد الاَّ انهُ لم يطالع على ما اظن تاريخها . قصصت عليهِ قصة نيويورك واصحابها الهنود الاولين ، وبيعهم المدينة من الاوربيين بشيء من الودع لا تتجاوز قيمة الخمسة وعشرين ريالاً . فسرَّ جداً بها وقال : وهل ملك اميركا اليوم من الهنود ؟ فقلت كلة في الجمهورية ورئيسها فقال : وهل للاميركان دين ؟ فقلت شيء من الدين، ولا ريب . ثم سألني ، وكأنهُ كان يستدرجني الى امر اكنّه ، لانهُ كان عالماً بما في اميركا من الاديان : وهل الكاثوليك هناك اكثر من البروتستانت ؟ — وكم عددهم اذن ؟

— لا يقل عن عشرة ملايين

— كثير . وما تأثيرهم في السياسة ؟

— يزداد نفوذهم يوماً فيوماً ولكنه مستنكر

— وهل يكون رئيس البلاد منهم ؟

— لا شريعة ولا قانون يمنع ذلك ، ولكن الحكم في البلاد للاكثرية وبالاقتراع

فاستزادني ايضاحاً في طريقة الاقتراع والانتخاب وكان يعي الكلام ويتأمله ويهز رأسه من حين الى حين استحساناً

— ولكنهم يبذلون أموالاً كثيرة في انتخاب الرئيس أفما كان أحسن أن يعطوهُ ربعَ تلك النفقات راتباً ويقيموه ملكاً عليهم ؟

— كان جورج واشنطون يا مولاي الرئيس الاول وانتخب ثانياً . الخ . وهي القصة التي كنت أقصها على أمراء العرب وفي مجالسهم فيعجبون بها جداً

«ما هربنا من من الملوك لنقيم منا ملكا علينا » كلمة قالها جورج الاول والآخر أبو الجمهورية ، أعجب بها كل من سمعها في شبه الجزيرة . أما السيد محمد فقال : أمرنا نحن العرب غير امر الاميركان اذا رفض اميرنا الامارة يقوم عشرون في البلاد يطلبونها، ويتنازعونها ، ويحتربون من اجلها . فعلى الامير الحاكم ، وهذه حالنا ، مهما تعددت تكاليف الملك ، واشتدت صعوباته ، ان يقف مكانهُ كالجندي — اهـ ا — ويقوم بواجبهِ ، دفعاً للفوضى ، وحقناً للدماء

ثم انتقل مرة اخرى فوراً — وما كان اسرعهُ انتقالاً وابعدهُ ! — فسألني سؤالاً في الجغرافية : وهل اميركا بعيدة عن خط الاستواء ؟

— اميركا الشمالية من حدودها الجنوبية تبعد عن خط الاستواء يامولانا خمسة عشر يوماً في البحر . واميركا كلها اي قارة العالم الجديد ، شطران ، شطر صغير تحت خط الاستواء جنوباً والآخر كبير فوقهُ شمالاً

— وهل يمكن الوصول الى روسيا من طريق اميركا ؟

— بحراً من سان فرنسيسكو الى اليابان ثم الى سيبيرية فروسية — ثم

— نعلم هذا . ولكن هناك طريقاً اقصر . بين آخر بر اميركا وآخر بر روسية مضيق اتذكر اسمهُ ؟

— مضيق بيرنغ

— ثم مضيق بارنغ . ما هي المسافة بين البرين ؟

ها هنا مضيق بحثتُ رأيت نفسي فيهِ . ما خال قط في ذهني اني سأسأل مسائل جغرافية في مجلس الامام لا استطيع الجواب عليها . ولا تأهبت لمثل هذه المباغتة المزعجة . فقلت: لا ادري ولكني اظن . . . وكان ظني بعيداً عن الحقيقة . ولا عجب. ان آخر عهدي بمضيق بيرنغ يوم كنت ادرس الجغرافية في مدرسة ليلية بنيويورك. وكان استاذنا يقول بين المزح والجد : من يجيد السباحة يمكنهُ ان يسبح من اميركا الى روسية

ولم اتذكر القصة الاَّ بعد خروجنا من مجلس الامام. فتأسفت جداً ورحت الوم ذاكرتي .وبّختها لانها لا تلبي ساعة يلزم ويليق ، فتمكنني في مثل هذه الحال من

تفكيه جليسي الشريف — وقلت في نفسي : ساقص القصة في المقابلة الثانية ان شاء الله . ولكنهُ تعالى لم يشأ . فلم يدن الامام بعدئذٍ من الموضوع لا بكلمة ولا باشارة ولا انا والحق يقال تذكرتها الا مرة وذلك لما كنا نتباحث في المعاهدة بينهُ وبين الملك حسين . وهذه من قبائح الذاكرة . فكيف يجوز ان اوقف البحث السياسي لاقص قصة مهما كانت مضحكة . هل اقول لحضرة الامام : على ذكر بني عايض يا مولاي ، او بمناسبة حدود القنفذة ، اقص عليك قصة مضيق يبرنع ؟ والسيد محمد درس في الازهر واقام مدة في مصر حيث تُفهم النكتة بالحاسة السابعة : وما الصلة يا حضرة الاديب بين القنفذة والمضيق ؟ رحم الله تلك القصة ورحم الله السيد محمد فمن ابن لهُ ان يطالعها الآن في هذا الفصل ؟

خرجت من مجلسهِ وفيَّ من الرجل تذكارات كلها حب واعجاب . وهي اليوم ، وانا بعد سنة اعيد ذكرها ، لا تحرك فيَّ غير الاعجاب والحب . وهذه كلمة من مذكراتي في جيزان :

« اول ما يروقك ويطربك من السيد محمد لسانهُ العربي الفصيح الذي لا يشوبه شيء من الاصطلاحات واللهجات المحلية . ثم وقفانهُ في الحديث وكلتهُ — أهَّا — في التمكين والتثبيت . واول نظرة في اخلاقهِ ومواهبهِ تريك انهُ ذكي الفؤاد شديد العارضة ، حصيف حكيم . ثم ساذج ، صادق ، كريم الاخلاق . . . لا اثر للروحانيات في وجههِ . ولكن قياس الفراسة الذي الفناهُ قلما يصح في هذا المقام . وفي وجه الرجل كما تقدم ملامح يناقض بعضها بعضاً . وهناك امر آخر علمي . اذا اختلفت جمجمة الاسود عن جمجمة الابيض ففي جماجم السود تفاوت مثلما في البيض . ان في الولايات المتحدة سوداً يسرقون الدجاج وسوداً لا يحيون بغير الكتاب المقدس والسيد المسيح — جاء في المزمور الواحد والخمسين «طهرني فأبيض اكثر من الثلج» . وهم يؤمنون بالانبياء وبكل شيء . واذا خيرت احداً منهم في رآسة الجمهورية وقيثارة داود يفضل القيثارة ولا غرو . . . فقد تكون روحانية السيد محمد كامنة لا تظهرها كلمات اللغة وسيماء الوجوه — لا تظهرها غير الاعمال . واني متيقن انهُ لو كان في الولايات المتحدة لساد الملايين من السود هناك

***

تعددت الجلسات والاحاديث وكان قطب دائرتها أولاً الملك حسين والوحدة

العربية . وثانياً الامام يحيى والصلح . وكان اجتماعنا دائماً ليلاً لأن الحر في جيزان في تموز (يوليو) لا يأذن قط بالتجول أو بأقل الأعمال نهاراً . فكنا بحكم الشمس والبحر — والميزان دائماً فوق المائة في الظل — نستسلم الى ما تبطل فيه الحركات كلها الاّ حركة التنفس . وهذه تضعف أحياناً فتستغيث . ولكننا كنا نحمد الله مرتين في النهار على حمامين باردين بكرة وأصيلا . ونكفر ليلاً عما نهمله عمداً ، أو في حال الاغماء ، من المحامد

***

خبرت الحر في أماكن كثيرة ، من المكسيك الى عدن . فما وجدت حرًّا جامعاً محاسن الحر كلها وفي أشد درجة منها مثل حر جيزان . فالشمس هناك قريبة جداً منك . كأنها على الارض تشتعل فترسل حرارتها عكساً الى كبد السماء . بل كأنها حبيبتك تشاركك الحياة فتجلس على ركبتك تقبلك في فمك ، قبلة تدوم اثني عشرة ساعة ولا تنقطع . واذا نظرت اليها وأنت تلجأ الى الماء منها ، تراها ترقص في هواء كأنه حجاب من الشاش الهندي الأبيض ، فتبدو صباحاً أشعة الشمس فيه كخيوط الفضة . أما في الظهيرة فترفع يديك الى عينيك لتقيهما من سهامها الذهبية

والرطوبة ! هاهنا يشترك البحر مع الشمس عليك — لتلك الرطوبة لون يجيئها من يدي البحر المد والجزر ، ولها جسم من كرم العناصر في تهامة ، ولها رائحة هي بنت الطحلب والسنبخة والملح . ولها فوق ذلك خاصة تلصقها بك اذا دنت منك . بل كيف المفر منها ؟ وهي كورق الغراء الحلو تجذبك أنت الذبابة اليها فتعلق بها . بل هي كثوب يلبسكه البحر وقد رآك تنزع كل ثيابك من اجل معبودتك الشمس . فتلبسك كرهاً وتشتهي فوقه ثوباً من الامواج . ولكنك في القلعة ، في القصر ، ضيف محترم . والامواج تحتك للفتيان والفتيات يلاعبونها فلا يليق بك في ذي البلاد العربية ، التي يتورّم فيها الاحترام فيؤلم ، ما يجوز للصبيان

الغريكة أمين الريحاني